عقائد الإسلام

(٢)

الدكتور يوسف القرضاوي

حقيقة التوحيد

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٣٩٣٧٤٧٠

عقائد الإسلام

(٢)

حقيقة التوحيد

الدكتور يوسف القرضاوى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون : ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة السابعة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

تم الجمع
بمكتب اليُســـر لخدمات الكمبيوتر
القاهرة - ت : ٢٤٤٩٧٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإيمان بالله أصل العقائد كلها

إن الإيمان بالله - أي بالذات الغيبية العلوية المختارة القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة - هو روح الدين ، أي دين ، وكذلك هو روح الإسلام ، وأصل عقائده كلها ، كما بيَّنها كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فهذا القرآن الكريم حين يتحدث عن أركان الإيمان ومتعلقاته يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها كما في قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ (٢) البقرة : ١٧٧ (٣) النساء : ١٣٦

والرسول الكريم يقول في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإيمان : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره » .

فالإيمان بالله هو الأصل ، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه وتابعة له ، فأنت بعد أن تؤمن بالله جل شأنه ، تؤمن - بالتالي - بملائكته وكتبه ورسله ولقائه وحسابه وقضائه وقدره . فالإيمان بهذه كلها فرع عن الإيمان بالله ، ومبني عليه . ولا يتصور الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالمرسل ، ولا بالجزاء والحساب إلا بعد الإيمان بالمجازِي والمحاسِب .

والإيمان بالله ، يتضمن الإيمان بوجوده بالضرورة ، والإيمان بوحدانيته في رُبوبيته وألوهيته . . والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، التي يتجلى فيها اتصافه بكل كمال يليق به ، وتنزهه عن كل نقص . .

وقد تبين لنا من دراستنا السابقة : أن وجود الله تعالى حقيقة لا ريب فيها ، بل هي أظهر الحقائق على الإطلاق ، شهدت بذلك الفطر السليمة ، ودلت على ذلك العقول الرشيدة ،

وأكد ذلك الراسخون في العلم بما شهدوا في الآفاق وفي أنفسهم من عجائب الإبداع والتسوية والتقدير والهداية .

وإذا كانت هذه الحقيقة الكبرى قد خفيت على بعض الناس ، فذلك على نحو ما قيل : من شدة الظهور الخفاء .

وإذا كان آخرون قد كابروا الفطرة المشتركة بين البشر ، وعاندوا منطق العقل والعلم ، وجحدوا بالله تعالى ، فهم بمثابة الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها .

* * *

• تركيز الإسلام على التوحيد :

والحق أن الإسلام لا يركز على الإيمان بوجود الله تعالى لاعتباره ذلك ضرورة فطرية ، ولكنه يركز غاية التركيز على عقيدة أخرى ، ضل الناس في شأنها ضلالاً بعيداً . وتلك هي عقيدة التوحيد التي هي لب عقائد الإسلام ، وروح الوجود الإسلامي : الإيمان بإله واحد فوق هذا الكون ، له الخلق والأمر، وإليه المصير ، هو رب كل شئ ، ومدبر كل أمر ، هو وحده الجدير أن يُعبد ولا يُجحد ، وأن يُشكر ولا يُكفر ، وأن يُطاع ولا يُعصي ، ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَـىءٍ

فاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل * لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) .

لقد جاء الإسلام والشرك بالله ضارب أطنابه في كل أنحاء العالم ، ولم يكن يعبد الله وحده إلا أفراد قلائل من الحنفاء في جزيرة العرب ممن يتعبدون على ما بقي سالماً من ملة إبراهيم ، أو بقايا من أهل الكتاب ، سلموا من تأثير التحريفات الوثنية التي أفسدت الأديــان الكتابية .

وحسبنا أن نعلم أن أمة كالعرب في جاهليتها غرقت في الوثنية إلى أذقانها . حتى إن الكعبة التي بناها محطم الأصنام لعبادة الله وحده/بات في جوفها وحولها ثلاثمائة وستون صنماً ، وحتى غدا في كل دار من دور مكة صنم يعبده أهلها .

بل روى الإمام البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : «كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الحجر الآخر (١) فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة ، فحلبنا عليه ، ثم طفنا به » !

وأكثر من ذلك أنهم كانوا يتخذون إلهاً من « العجوة » ،

---

(١) الأنعام : ١٠٢ - ١٠٣

وكثيراً ما كان يصطحبه أحدهم في سفره ، فإذا فنى زاده وغلبه الجوع لم يجد بدأ من أن يأكله ! وإلى هذا النوع من الآلهة يشير القرآن بقوله : ﴿ وإنْ يَسلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ منْهُ، ضَعُفَ الطَّالبُ والمَطْلُوبُ ﴾ (١) .

وفي بلد كالهند بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس لميلاد المسيح ، حتى قُدِّرَ عدد الآلهة حينئذ بـ ٣٣٠ مليوناً .

حتى الأديان السماوية دخلتها الوثنية فكدرت صفاءها ، ولوثت نقاءها ﴿ وقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وقَالَتِ النَّصَارَى المَسيحُ ابْنُ اللّهِ ﴾ (٢) فالمسيح عند النصارى إله حق من إله حق !

وهذا لون من الشرك انتشر في كثير من الأمم أن لله أبناء أو بنات يُعبدون من دون الله ، أو مع الله ، كما زعم ذلك الهنود قديماً مع كريشنا وبوذا . وكما زعم العرب بالنسبة للملائكة الذين قالوا عنهم : بنات الله ! وفي ذلك يقول القرآن : ﴿ وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمَنُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسبِقُونَهُ بالقَولِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعمَلُونَ * يَعلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الحج : ٧٣ (٢) التوبة : ٣٠ . (٣) الأنبياء : ٢٦ – ٢٨

من أجل هذا عنى الإسلام كل العناية بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ، علماً وعملاً ، ومقاومة الشرك اعتقاداً وسلوكاً : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

* * *

• دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى :

لقد دلت على وحدانية هذا الإله وتفرده كل الدلائل فطرية وعقلية وسمعية . فالإنسان إذا تُرك لفطرته وجبلته - دون تدخل أو تلقين - يجد نفسه متجهاً إلى قوة عليا فوق الإنسان وفوق الكون ، يدعوها رَغَباً ورَهَباً ، ولا سيما عندما تأخذ بخناقه الشدائد ، وتعصف به الكروب ، وينفض يده من عون الناس من حوله ، هنالك يتجه مخلصاً إلى ربه ، طارحاً ما كان يتوجه إليه- بتأثير الوهم ، أو الجهل ، أو الهوى ، أو البيئة - من آلهة زائفة من البشر أو الحيوان أو النبات أو الجماد !

وهذا ما أشار إليه القرآن فيما ذكرناه من قبل من قصة ركاب السفينة المشرفة على الغرق : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

---

(١) البقرة : ١٦٣

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [1] .

وقد ذكرنا هذا مثلاً باعتباره دليلاً على وجود الله تعالى وهو نفسه دليل على وحدانيته ، فإن الإنسان حين تجرد من العوامل الطارئة ، ورجع إلى خالص فطرته ، لم يتجه بدعائه ساعة الشدة والأزمة إلى الصنم أو الوثن ، بل اتجه إلى الله وحده ربه ورب كل شئ كما قال تعالى في وصف نفسية هؤلاء المشركين : ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

* * *

• دلالة العقل :

دل العقل كذلك على أن وراء هذا الكون مكوناً واحداً فهذا الكون العريض الفسيح - على تنوع ما فيه من مخلوقات ، صغيرة وكبيرة ، حية وجامدة ، ناطقة وصامتة ، عاقلة وغير عاقلة ، علوية وسفلية - تحكمه قوانين واحدة ، تنطبق على الذرة ، كما تنطبق على المجرة ، حتى إن العالم الطبيعي حين

---

(١) يونس : ٢٢

ينظر إلى الذّرة يجدها في تكوينها مشابهة للمجموعة الشمسية في تكوينها ولا فرق .

هناك قانون عام كقانون « الزوجية » - أعني الازدواج أو الثنائية في المخلوقات كلها - عرفه الناس قديماً في الإنسان والحيوان في صورة الذكورة والأنوثة ، ولاحظوه في بعض النباتات كالنخل . ثم اكتشف العلم أن النباتات كلها فيها تذكير وتأنيث . بل الجمادات فيها هذا الازدواج في صورة الموجب والسالب في الكهرباء ونحوها . بل الذرة التي هي لبنة البناء الكوني كله تتكون من شحنة موجبة وأخرى سالبة إلى جوار النواة . وكان هذا الاكتشاف العلمي الحديث تصديقاً لما جاء به القرآن منذ أربعة عشر قرناً حين قرر هذه الحقيقة بمثل قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) وهذه الكلية ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ حقيقة لا مجازية ولا أغلبية .

ومن الدلائل على وحدة هذا الكون : ما نشاهده بين أجزائه من

---

(١) يس : ٣٦ (٢) الذاريات : ٤٩

تعاون وتناسق وتناغم ، بحيث يؤدي كل جزء منها مهمته بانتظام دون أن يصطدم بالأجزاء الأخرى أو يعوق سيرها ، أو يجور عليها . بل بالعكس يمدها بما تحتاج إليه مما عنده ، ويأخذ منها ما يفتقد هو إليه مما عندها ، كما رأينا من المبادلة القائمة بين المملكة الحيوانية والمملكة النباتية . فهل عقدت اتفاقية بينهما لتحقيق هذه المقايضة الضرورية لحياة كل منهما ؟ أم أن هناك مدبراً أعلى نظم العلاقة بين المملكتين على هذا النحو العجيب ؟

ومن الذي نظّم العلاقة بين الشمس والأرض ، وبين الأرض والقمر ، وبين القمر والشمس ، وبين كواكب المجموعة الشمسية بعضها ببعض ، وبين المجموعة الشمسية وملايين المجموعات النجمية الأخرى في مجرتنا الكبرى ، وبين مجرتنا وملايين المجرات الأخرى ، بحيث تتعاون ولا تتصادم ؟ ويجري كل شيء بحساب وميزان ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [1] ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [2] .

---

(١) الرحمن : ٥ – ٧ (٢) يس : ٤٠

إن هذه الوحدة المشهودة بعين البصر وعين البصيرة في الخلق كله ، لدليل ناصع على وحدة خالقه ، كما أنه - بالضرورة - دليل على وجوده .

ولو كان وراء هذا الكون أكثر من خالق لاضطرب نظامه ، واختل ميزانه ، ورأينا أثر كل خالق في الجزء الذي خلقه وهيمن عليه . وبذلك تختلف النواميس الكونية ، وتتناقض سنن الخلق، نتيجة لاختلاف إرادات الخالقين ، وهذا يؤدي بالتالي إلى فساد الكون كله لا محالة .

وإلى هذا الدليل الكوني يشير القرآن الكريم حيث يقول عن السموات والأرض : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .

وفي سورة أخرى يقول القرآن :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢) .

ثم إن القول بوحدة الرب الأعلى - فضلا عن دلالة الوحدة

---

(١) الأنبياء : ٢٢ (٢) المؤمنون : ٩١

الكونية عليه - هو الذي يتفق مع منطق العقل البشري السوي. فالعقل ينشد الوصول إلى الوحدة من وراء الكثرة . ويتطلب أن يسير من الأسباب المتعددة إلى سبب واحد ، هو سبب الأسباب أو علة العلل . وهذا ما جعل بعض الفلاسفة يطلقون على خالق الكون « العلة الأولى » .

* * *

• دلالة النقل :

ومع دلالة الفطرة والعقل ، جاءت الدلائل السمعية ، بما تناقلته الأجيال عن كتب الله تعالى ورسله إلى الأمم في مختلف الأمصار والأعصار من الدعوة إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، وإفراده تعالى بالعبادة . وإنكارهم على أقوامهم الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً .

وهذا القرآن الوثيقة الإلهية المحفوظة التي تتمثل فيها هداية السماء للأرض،يقص علينا من نبأ المرسلين الذين بُعثوا جميعاً بعقيدة التوحيد ، وهذا ما احتج به القرآن على المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى بأنهم ليس معهم دليل من العقل ولا من النقل .

لنستمع معاً إلى هذا المقطع من سورة الأنبياء حيث يتحدث القرآن عن المشركين بصيغة التوبيخ والإنكار : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) .. ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ ، فَهُم مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

وفي سورة الأحقاف يطالبهم القرآن بدليل نقلي على ما يدعون : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنَ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

* * *

• التوحيد جوهر الإيمان بالله :

وإذا عرفت يا أخي أن الإيمان بالله هو جوهر العقائد الإسلامية جميعاً فواجبك أن تعرف هنا كذلك أن توحيد الله هو

---

(١) الأنبياء : ٢١ - ٢٢

(٢) الأنبياء : ٢٤ - ٢٥

(٣) الأحقاف : ٤

جوهر الإيمان بالله تعالى . وإذا تجرد عن التوحيد الحق ، كان كفراً وشركاً ، ورجساً وزوراً ، وظلماً عظيماً ، وضلالاً مبيناً .

ولهذا كان لزاماً عليك أيها المسلم أن تعرف حقيقة التوحيد ، الذي أمر الله به ، وأقام عليه دينه ، وأنزل به كتابه ، وبعث به رسوله ، وعلق خيري الدنيا والآخرة على تحقيقه وتجريده ، وجعل الجنة لأهله وأنصاره ، والنار لخصومه وأعدائه - فإن كثيراً من الطوائف نسبوا أنفسهم إلى التوحيد ، وادعوا أن ما هم عليه هو التوحيد الخالص ، وما عليه غيرهم هو الباطل .

وكل يدعي وصلاً لليلى   وليلى لا تقر لذا وذاكا !

فأنصار فلسفة أرسطو ومن تبعه ممن سموا « فلاسفة المسلمين » تجد التوحيد عندهم يتمثل في : إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة ، بل هو وجود مطلق لا يعرض لشيء من الماهيات ، ولايقوم به وصف ، ولا يتخصص بنعت ، بل صفاته كلها سلوب وإضافات .. حتى انتهى توحيد هؤلاء إلى إنكار ذات الرب الذي دعت إليه أديان السماء ، وانكار خلقه للعالم ، وتدبيره له ، وعلمه بكل ما يجري فيه .. فهم يقولون بقدم الأفلاك ، وأن الله لا يبعث من في القبور ، وأن النبوة مكتسبة ،

وأنها حرفة من الحرف .. وأن الله لا يعلم شيئاً من الموجودات المعينة ألبتة ، وأنه لايقدر على قلب شيء من أعيان العالم ، ولا شق الأفلاك ولا خرقها .. وأنه لا حلال ولا حرام ، ولاأمر ولا نهي ، ولا جنة ولانار .. فهذا هو توحيد هؤلاء !!

وهل أتاك نبأ دعاة « وحدة الوجود » ؟ إنهم يزعمون أنهم وحدهم الموحدون ، ومن عداهم فهم المعددون . فهل علمت ما توحيدهم المزعوم ؟ توحيدهم : أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود وحقيقته وماهيته .. وأنه آية كل شيء ، وله فيه آية تدل على أنه عينه . وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير . بل هو نفس الآية ، ونفس الدليل ، ونفس المستَدل ، ونفس المستدل عليه . فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود . فهو – عندهم – عين الناكح ، وعين المنكوح ، وعين الذابح ، وعين المذبوح ، وعين الآكل ، وعين المأكول . وهذا عندهم هو السر الذي رمزت إليه هوامس الدهور الأولية ، ورامت إفادته الهداية النبوية ، كما قال محققهم وعارفهم ابن سبعين !

ومن فروع هذا التوحيد وثماره : أن فرعون ونمروذ وأمثالهما

مؤمنون كاملو الإيمان ، عارفون بالله على الحقيقة . وأن عُبَّاد الأصنام إنما عبدوا عين الله لا غيره . فهم على الحق والصواب.. وأن لا فرق في التحليل والتحريم بين الأم والأُخت وبين الأجنبية، ولا بين الماء والخمر ، ولا بين الزواج والزنا . الكل من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة .. وأن الأنبياء ضيّقوا الطريق على الناس ، وبعّدوا عليهم المقصود ، والأمر وراء ما جاءوا به ودعوا إليه !!

وإن ننس لا ننس هنا توحيد « المعتزلة » الذين سموا أنفسهم أهل التوحيد والعدل . وجعلوا التوحيد أول أصولهم الخمسة .

تُرى مامضمون هذا التوحيد ؟

إنه إنكار قَدر الله تعالى ، وجحد عموم مشيئته للكائنات . وقدرته عليها .. ومتأخروهم ضموا إلى ذلك توحيد « الجهمية » فأصبحت حقيقة التوحيد عندهم : إنكار القَدر ، وإنكار حقائق الأسماء الحُسنى ، والصفات العُلا .

وفي مقابل هذا التوحيد الأعرج يجيئ توحيد « الجبرية » ومضمونه عندهم : تفرد الرب بالخلق والفعل ، وأن العباد غير

فاعلين على الحقيقة ، ولا محدثين لأفعالهم ، ولا قادرين عليها ، وأن أفعالهم الاختيارية لا تعدو أن تكون مثل حركات الأشجار عند هبوب الرياح ، وأن الرب تعالى لم يفعل لحكمة ولا غاية تُطلب بالفعل ، وليس في المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب ، بل ما تم إلامشيئة محضة ، ترجح مثلاً على مثل ، بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب ألبتة [(١)] .

وهل يجهل ذو بصيرة توحيد المضللين من عوام المسلمين ، وتوحيد مضلليهم ممن يدعون المشيخة ، ويتزيون بزي الدين ورجاله الصالحين ؟

إنهم يدعون غير الله ويرجون ويخافون غير الله ، وممن ادعوا لهم أنهم أولياء أو أقطاب أو أوساط أو أبدال أو غير ذلك من الألقاب .

فهم يطوفون بأضرحتهم يسألونهم أكثر مما يسألون الله ، ويستعينونهم أكثر مما يستعينون الله . يهرعون إليهم في الملمات، يطلبون منهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، بدعوى أنهم وسطاء بينهم وبين الله ، ولولا الواسطة لذهب -كما قيل - الموسوط !

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ ٣ ص ٤٤٧ - ٤٤٩ ط . السنة المحمدية .

وقبل هذا كله لايغيب عنك « توحيد النصارى » ، فقد زعموا أن ديانتهم ديانة توحيدية ، وأنهم لم يخرجوا من دائرة التوحيد، برغم اعتقادهم وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .. وهي : الأب والابن والروح القدس ، فهم عائلة أو شركة مقدسة : الإله الأب، والإله الابن ، والأقنوم الثالث المسمى « روح القدس ».

فإذا قلت لهم : كيف تكونون موحدين مع قولكم بهؤلاء الثلاثة ؟ قالوا : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة !! ولا مجال للعقل والمنطق في أمر العقيدة ، فشعارهم هنا : اعتقد وأنت أعمى !!

من أجل ذلك كان من أوجب الواجبات بيان حقيقة التوحيد الذي دعا إليه الإسلام ، وبنى عليه تعاليمه كلها ، حتى يتبين الحق من الباطل .

* * *

• التوحيد المأمور به :

إنه توحيد اعتقادي علمي ، وتوحيد عملي سلوكي .

وبعبارة أخرى . . هما توحيدان لا يغني أحدهما عن الآخر :

توحيد في المعرفة والاثبات والاعتقاد .. وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة .

فلا يُقبل إيمان امرىء عند الله ما لم يقم بتوحيده سبحانه : علماً واعتقاداً ، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له ولا شبيه له ، ولا ولد ولا والد له .

وتوحيده كذلك : قصداً وعملاً ، بأن يفرده عز وجل بالعبودية الكاملة ، والطاعة المطلقة ، والذل له والإنابة اليه والتوكل عليه والخشية منه والرجاء فيه .. الخ .

والتوحيد بالمعنى الأول هو الذي أفصحت عنه ودلت عليه بوضوح سورة « الاخلاص » بتمامها ، وأول سورة « آل عمران » ، وأول سورة « طه » ، وأول سورة « ألم . السجدة » ، وأول سورة « الحديد » ، وآخر سورة « الحشر » .. وغيرها .

والتوحيد بالمعنى الثاني ، هو ما تضمنته ، ودعت اليه ، ودلت عليه ، سورة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ ، وجملة سورة «الأنعام » ، وأول سورة « الأعراف » وآخرها ، وأول سورة « يونس » ووسطها وآخرها ، وأول سورة « الزمر » وأواخرها .. وغالب سور القرآن . بل قال العلامة ابن القيم : إن كل سورة في القرآن متضمنة لنوعي التوحيد .

وقد جرى كثير من المصنفين قديماً وحديثاً ، على تسمية النوع الأول من التوحيد « توحيد الربوبية » ، وعلى تسمية النوع الثاني « توحيد الإلهية » أو « الألوهية » .

وأحسبك أيها القارىء الكريم في حاجة إلى إلقاء مزيد من الضوء على معنى كل من هذين المصطلحين ، حتى تكون على بينة من ربك ، وبصيرة من دينك . ، وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة . فما معنى توحيد الربوبية ؟ وما معنى توحيد الألوهية ؟

* * *

أولا : توحيد الربوبية

ومعناه اعتقاد أنه تعالى رب السموات والأرض وخالق مَنْ فيهما وما فيهما ، ومالك الأمر في هذا العالم كله لا شريك له في ملكه ، ولا مُعَقِّب عليه في حكمه ، فهو وحده رب كل شيء ، ورازق كل حى ، ومُدَبِّر كل أمر ، وهو وحده الخافض الرافع ، المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل ، وكل مَنْ سواه وما سواه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ، إلا بإذن الله ومشيئته . وهذا القسم من التوحيد لم يجحده إلا الماديون

الملحدون الذين ينكرون وجود اللّه تعالى ، كالدهريين قديماً ، والشيوعيين في عصرنا . ومثل الماديين « الثنوية » الذين يعتقدون أن للعالم الهين . إلهاً للنور وإلهاً للظلمة ، أما معظم المشركين كالعرب في الجاهلية فكانوا يعترفون بهذا النوع من التوحيد ولا ينكرونه ، كما حكى عنهم القرآن :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوات والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [١] ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [٢] ، ﴿ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّهِ ، قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوات السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيم * سَيَقُولُونَ لِلّهِ ، قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [٣] .

فهذه أجوبة المشركين ، تدل على انهم يقرون بربوبية اللّه

---

(١) العنكبوت : ٦١ (٢) العنكبوت : ٦٣

(٣) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

تعالى للكون وتدبيره لأمره ، وكان مقتضى إيمانهم بربوبيته تعالى للكون أن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادة ربهم أحداً، ولكنهم أنكروا القسم الآخر من التوحيد هذا ، وهو توحيد الإلهية أو الألوهية .

* * *

ثانياً : توحيد الألوهية

ومعنى توحيد الألوهية ، إفراد الله تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة ، فلا يُعبد إلا الله وحده ، ولا يُشرك به شيء في الأرض أو في السماء . ولا يتحقق التوحيد ما لم ينضم توحيد الإلهية إلى توحيد الربوبية . فإن هذا وحده لا يكفي ، فالعرب المشركون كانوا يقرون به ، ومع هذا لم يدخلهم في الإسلام لأنهم أشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطاناً ، واتخذوا مع الله آلهة أخرى ، زعموا أنها تقربهم الى الله زلفي ، أو تشفع لهم عند الله .

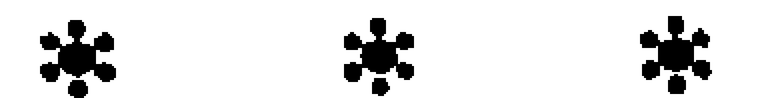
والنصارى لم ينكروا أن الله رب السموات والأرض ، ولكنهم أشركوا به المسيح عيسى ، واتخذوه إلهاً من دون الله ، وأعتبر القرآن هؤلاء وأولئك كفاراً تحرم عليهم الجنة ، ويخلدون في النار.

ومنذ أقدم العصور ضل الناس عن هذا التوحيد ، فعبدوا من دون اللّه آلهة شتى . عبد قوم نوح : وُدّاً وسواع ويغوث ويعوق ونسرا .. وعبد قوم إبراهيم : الأصنام .. وعبد قدماء المصريين: العجل .. وعبد الهندوس : البقر .. وعبد أهل سبأ : الشمس.. وعبد الصابئون : الكواكب .. وعبد المجوس : النار .. وعبد العرب : الأوثان والحجارة .. وعبد النصاري : المسيح وأُمه .. وعبدوا الأحبار والرهبان من دون اللّه ، فهؤلاء كلهم مشركون ، لأنهم لم يفردوا اللّه تعالى بالعبادة ، التي لا تُستحق لأحد غيره .

ولكن ما معنى « العبادة » التي هى من حق اللّه وحده ؟

• معنى العبادة :

العبادة كلمة تتضمن معنيين امتزج أحدهما بالآخر ، فصارا شيئاً واحداً . وهما نهاية الخضوع مع نهاية الحب . فالخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل هو معنى العبادة . فأما حب بلا خضوع ، أو خضوع بلا حب ، فلا يحقق معنى العبادة .. وكذلك بعض الخضوع مع بعض الحب لا يحقق العبادة ، بل لا بد من كل الخضوع مع كل الحب .



• صور العبادة وأنوعها :

والعبادة ليست مقصورة على صورة واحدة ، كما يخيل لكثير من الناس ، بل لها أنواع وصور عديدة . .

(أ) فمنها : الدعاء - أي الاتجاه إلى الله تعالى بطلب نفع أو دفع ضر ، أو رفع بلاء أو نصر على عدو ، أو نحو ذلك . فهذا الاتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله تعالى هو مخ العبادة وروحها كما في الحديث : « الدعاء هو العبادة ».(رواه الترمذي).

(ب) ومنها : إقامة الشعائر الدينية ، مثل : الصلاة والصيام والصدقة والحج والنذر والذبح وما شابه ذلك . فلا يجوز أن توجه هذه الشعائر إلا لله (لا يجوز الصلاة لغير الله ولا الصيام والصدقة والنذر والذبح وغيرها من الشعائر) .

(جـ) ومنها : الانقياد والإذعان الديني لما شرع الله من أحكام ، أحل بها الحلال وحرّم الحرام ، وحد الحدود ، ونظم شئون الحياة ، فلا يجوز لمن آمن بالله رباً أن يأخذ عن البشر النظم والأحكام والقيم والقوانين ، يخضع لها وَيَحكِّمها في حياته بغير سلطان من الله فهذا ضرب من العبادة .

* * *

• أهمية توحيد الألوهية :

وهذا القسم من التوحيد هو أعظم أقسامه وأهمها ، وهو الذي وَجَّهَ الرسل الكرام أكبر عنايتهم إليه ، كما سيأتي .. وهو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة « التوحيد » .

وهو الذي بعث اللّه به رسله ، وأنزل كتبه . وأرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، ومن أجله حُقت الحاقة ، ووقعت الواقعة، ونُشرت الدواوين ، ونُصبت الموازين ، وقامت سوق الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد . فريق في الجنة وفريق في السعير .

* * *

لا إله إلا الله عنوان التوحيد

وللتوحيد الذي جاء به الرسل عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة ، هذا العنوان هو كلمة « لا إله إلا الله » التي تسمى « كلمة التوحيد » أو « كلمة الإخلاص » أو « كلمة التقوى » .

وهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ، وإثباتها لله وحده ، فهو وحده الإله الحق ، وما عداه مما عبد الناس في مختلف العصور فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة والأوهام . كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ (١) .

والإله هو : المعبود بحق - أى المحبوب المطاع ، الذي يستحق أن يُعبد - وذلك لما اتصف به من صفات الكمال ، التي تقتضي أن يُخص بنهاية الحب ونهاية الخضوع ، وهما معنى العبادة ، فان الاله - كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هو الذي تألهه القلوب بحبها . وتخضع له ، وتذل له ، وتخافه وترجوه ،

---

(١) الحج : ٦٢

وتُنيب إليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ اليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه .. وليس ذلك إلا الله وحده .

ولهذا كانت « لا إله إلاّ الله » أصدق الكلام وأفضله ، وكانت رأس الأمر ، وأحسن الحسنات ، جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلاّ الله » ..

* * *

• التوحيد هو المهمة الأولى للرسل :

ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعاً ، كان هو العنصر الأول في دعوات الرسل جميعاً من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام .

ان المهمة الأولى للرسل الذين بعثهم الله هداة لعباده تتمثل في أمرين أساسيين كلاهما لازم للآخر ومكمل له ..

الأول : الدعوة إلى عبادة الله وحده .

الثاني : الدعوة إلى اجتناب الطاغوت .

وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١) .

ويقول مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ولهذا نجد أول نداء يوجهه كل رسول إلى قومه : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣) . . هكذا ذكر القرآن عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم .

هكذا نجد نوحاً أول رسل الله إلى المشركين يقول لقومه : ﴿ إنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أنْ لاَ تَعْبُدُوا إلاَّ اللَّهَ ﴾ (٤) .

والمسيح عيسى ابن مريم الذي اتخذه قومه بعد ذلك ربا يعبد، يقول : ﴿ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّه فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) الأعراف : ٥٩
(٤) هود : ٢٥ - ٢٦ (٥) المائدة : ٧٢

أما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كانت دعوته إلى التوحيد واجتناب الطاغوت أبرز وأقوى وأعمق وأخلد ، كما يبدو ذلك واضحاً في القرآن والسنة ، وكما يتجلى في شعائر الإسلام وشرائعه وآدابه وأخلاقه .

* * *

• التوحيد شعار الإسلام :

وكان من مظاهر عناية الإسلام الكبرى بالتوحيد أن جعله شعاراً له يميزه عن كل الديانات سواء منها الوثنية والكتابية المحرفة ، وأصبح أشهر ما يُعرف به الإسلام أنه « دين التوحيد » ، وصار عنوان الاسلام يتجسد في كلمتين أو جملتين من شهد بهما فقد دخل باب الإسلام . أولى هاتين الكلمتين « شهادة أن لا إله إلا اللّه » ، والثانية أن يشهد « أن محمداً رسول اللّه ».

وأصبح إعلان هذا التوحيد شعيرة يومية ، بل أكثر من يومية ، حيث يكررها الفرد المسلم في صلواته المفروضة فقط تسع مرات في تشهده ، وخمس مرات في إقامته ، ولم يكتف الإسلام بذلك، بل شرع الأذان في كل يوم خمس مرات ليعلن على الدنيا كلها من فوق منائره بصوت جهير : « أشهد أن لا إله إلاّ اللّه » .

ومن روائع الإسلام أنه سن للأب المسلم أن يستقبل مولوده بالأذان الشرعي ، يؤذن به في أذنه اليمنى ، لتكون كلمة التوحيد أول ما يطرق سمعه من أصوات الناس .

فإذا عاش في الدنيا ما قُدِّرَ له ، ثم حضرته الوفاة ، كان على أوليائه وأقاربه أن يلقنوه كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » .

وبهذا يكون أول ما يستقبل به المسلم نور الحياة هو كلمة التوحيد ، وآخر ما يودع به الحياة هو كلمة التوحيد ، وما بين مهد الطفولة وفراش الموت ليس له مهمة غير إقامة التوحيد والدعوة إلى التوحيد .

* * *

• التوحيد حق الله على العباد :

ومما يؤكد هذا المعنى أن الرسول ﷺ بيّن أن التوحيد هو حق الله على عباده الذي لا يجوز التفريط فيه ، ولا الغفلة عنه ..

روى الشيخان البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي : « يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا

يشرك به شيئاً »، قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ . قال : « لا تبشرهم فيتكلوا » .

والسر في هذا الحق أن الله تعالى خلق الإنسان من عدم ، وأمده بنعم لا تُحصى ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار لخدمته ، وآتاه العقل ، وعلّمه البيان ، فمن حق هذا الخالق الرازق ، المنعم المعلم ، الرحمن الرحيم ، أن يُشكر فلا يُكفر ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُطاع فلا يُعصى .

ولهذا كان بيان هذا الحق وتأكيده هو أول وصايا القرآن كما في الآية التي تسمى آية الحقوق العشرة ، المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ واعبُدُوا اللّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ﴾(١) .. الآية . وكما قال في الآيات المحكمة المشتملة على الوصايا العشر في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، ألاّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ﴾(٢) .. الخ ، ومثل ذلك وصايا الحكمة في سورة الاسـراء المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماًمَخْذُولاً*

---

(١) النساء : ٣٦ (٢) الأنعام : ١٥١

وَقَضَـى ربُّكَ ألاَّ تَعبُدُوا إلاَّ إياهُ وَبِالْوَالِدينِ إحْسَــاناً ﴾ (١) ... الآيات .

* * *

• التوحيد رسالة المسلم في الحياة :

وإذا كان المسلم يستقبل حياته بالتوحيد ويودعها بالتوحيد ، فإن وظيفته بين مهد الطفولة وفراش الموت ، هى إقامة التوحيد، والدعوة إلى التوحيد .

ويقول الله تعالى في بيان الوظيفة التي خلق لها المكلفين من الانس والجن : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ ﴾ (٢) .

بينت الآية الكريمة أنه سبحانه خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، فهذه هى الغاية والحكمة من خلقهم . لم يخلقهم الله تعالى ليأكلوا ويتمتعوا ، كما تأكل الأنعام ، دون أن يعرفوا الله جل شأنه ، ويقدروه حق قدره ، ويخصوه بالعبادة ضارعين خاشعين .

---

(١) الاسراء : ٢٢ - ٢٣ (٢) الذاريات : ٥٦ - ٥٧

فمن عاش عمره من غير أن يحقق هدف وجوده ووظيفة حياته، وهي عبادة الله وحده - فقد انحط عن مرتبة المكلفين العقلاء ، وأصبح كالأنعام أو أضل سبيلا .

* * *

● التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم :

والتوحيد كما هو رسالة المسلم في الحياة ، هو أيضاً رسالة الأمة المسلمة إلى العالم كله ، وإلى الأمم جميعاً . ولهذا كان النبي ﷺ يختم دعوته إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض وأمرائها ، بهذه الآية الكريمة : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان يعرفون هذه الرســالة وواجبهم نحوها ، وحين سأل رستم قائد

---

(١) آل عمران : ٦٤

الفرس ربعى بن عامر في حرب القادسية : من أنتم ؟ وما مهمتكم ؟ أجابه بقوله : « نحن قوم بعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام » .

* * *

بماذا يتحقق التوحيد ؟

إن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، وعنى الإسلام بتثبيته وتأكيده وحمايته لا يتحقق وترسخ جذوره وتمتد فروعه،إلا إذا توافرت له العناصر الآتية :

العنصر الأول : إخلاص العبودية لله وحده .

العنصر الثاني : الكفر بكل الطواغيت والبراءة ممن عبدها أو والاها من دون الله .

العنصر الثالث : إتقاء الشرك بكل ألوانه ومراتبه ، وسد المنافذ إليه .

أولا - إخلاص العبودية لله :

أما إخلاص العبودية لله تعالى فمعناه : إعطاء الألوهية حقها

الكامل من التعظيم والمحبة والخضوع المطلق ، وذلك يثبت بأمور ثلاثة :

١ - ألا يبغي الانسان غير اللّه رباً يعظمه كما يعظم اللّه.

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١)

فكل ما اتخذه الناس من أرباب عبدوها أو عظموها من دون اللّه أو مع اللّه يجب أن يسقط ويزول سواء أكانت أرباباً من الحجر أم من البشر ، ولهذا كانت دعوة رسول اللّه ﷺ إلى الملوك والأمراء : ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

٢ - ألا يتخذ غير اللّه ولياً يحبه كحب اللّه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ؟ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ (٤) .

إلى أن قال تعالى في شأنهم : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام : ١٦٤
(٢) آل عمران : ٦٤
(٣) الأنعام : ١٤
(٤) البقرة : ١٦٥
(٥) البقرة : ١٦٧

والمعنى : أنهم يحبون أندادهم وأولياءهم حباً ممتزجاً بالخضوع والخوف والتعظيم الذي لا يجوز أن يكون إلا لله .

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الاسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟ وكيف بمن أحب الند وحده ولم يحب الله ؟؟

إن مقتضى التوحيد أن يخلص المرء حبه لله ، ولا يتخذ ولياً ولا نداً يحبه كحب الله ، فالولاية لا تكون الا لله : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

٣ - ألا يبتغي غير الله حكماً ، يطيعه كما يطيع الله ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ ؟ (٢) .

وذلك أن الذي له حق الحكم في شئون عباده والتشريع لهم في

---

(١) الشورى : ٩ (٢) الأنعام : ١١٤

أمور دينهم ودنياهم إنما هو الله وحده ، العليم بخلقه ، الرحيم بهم ، الخبير بما يصلحهم وما يفسدهم . ﴿ ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) .

ومن هنا قرر القرآن الكريم أن الحكم - بمعنى التشريع - ليس إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ ، أَمَرَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمُونَ ﴾(٢) .

كما اعتبر القرآن التحاكم الى غير الله ورسوله خروجاً عن حقيقة الايمان ، ودخولاً في طاعة الشيطان : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾(٣).

* * *

---

(١) الملك : ١٤
(٢) يوسف : ٤٠
(٣) النساء : ٦٠ - ٦١

ثانياً - الكفر بالطواغيت :

كان العنصر الأول في تحقيق التوحيد هو إخلاص العبودية لله، وإعطاء الألوهية حقها من التعظيم والمحبة والطاعة ، التي لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه .

أما العنصر الثاني ، فهو الكفر بالطواغيت والبراءة من كل من عبدها أو والاها من دون الله ، حتى إن القرآن الكريم قدّم أحياناً الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا ﴾ (١) .

وقال رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ، حرُم ماله ودمه ، وحسابه على الله »(رواه مسلم)

فلم يجعل الإقرار بكلمة التوحيد ، عاصماً للدم والمال ، حتى يضم إليها الكفر بما يُعبد من دون الله .

ذلك أن الأشياء تتميز بأضدادها ، فالإيمان بالحق لا يتميز ويتحقق إلا بالكفر بالباطل ، والبراءة من أهله .

ولهذا أعلن إمام الموحدين - إبراهيم عليه السلام - براءته من

---

(١) البقرة : ٢٥٦

آلهة قومه وأصنامهم وعداوته لهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (١) . وقال سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (٢) .

وبهذا نعلم أن التوحيد الحق لا يتم إلا إذا انضم إلى الإيمان بالله وعبادته ، الكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه ، ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعاً إلى قومهم ما عرفنا من قبل : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) .

ولكن ما معنى الطاغوت ؟

الطاغوت كلمة مشتقة من « الطغيان » وهو مجاوزة الحد . وقد اختلفت عبارات السلف في تحديد معناه . فقال عمر رضى الله عنه : الطاغوت : الشيطان . وقال جابر رضى الله عنه : الطواغيت : كهان كانت تنزل عليهم الشياطين . وقال مالك : الطاغوت : كل ما عُبِدَ من دون الله .

---

(١) الزخرف : ٢٦ - ٢٧ (٢) الممتحنة : ٤
(٣) النحل : ٣٦

وهذه الأقوال تُذكر أمثلة للطاغوت ولكنها لا تحصر كل أفراده .
وأضبط تحديد لمعنى الطاغوت ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله قال : « الطاغوت » كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون اليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

* * *

ثالثاً - إتقاء الشرك والحذر منه :

وهذا هو العنصر الثالث لتحقيق التوحيد ، وهو يقتضي معرفة أنواع الشرك كله أكبره وأصغره ، جليه وخفيه ، والتحرز من كل شائبة للشرك ، والحذر من منافذه ومداخله .

إن الشيء - كما قلنا - لا يتميز الا بضده ، فلهذا لا يُعرف التوحيد خالصاً متميزاً إلا بمعرفة ضده وهو الشرك .

فما هي حقيقة الشرك ؟

* * *

الشرك

الشرك .. أن يجعل المرء لله شريكاً فيما هو من خالص حقه سبحانه ، كأن يتخذ مع الله إلهاً أو آلهة ، يعبدها أو يطيعها أو يستعين بها أو يحبها أو نحو ذلك مما لا يستحقه إلا الله جل شأنه .

وهذا هو الشرك الأكبر ، الذي لا يُقبل معه عمل صالح ، بل لا يصلح معه عمل ، لأن أول شرط لقبول العمل وصلاحه أن يكون خالصاً لله كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (١) .

وهذا الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾(٢) .

والجنة حرام على المشرك ، كما أن النار مأواه ومثواه قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) الكهف : ١١٠ . (٢) النساء : ٤٨
(٣) المائدة : ٧٢

أنواع الشرك

الشرك نوعان : شرك أكبر ، وشرك أصغر .

فالشرك الأكبر هو الذي لا يغفره الله ولا يدخل صاحبه الجنة أبداً .

والشرك الأصغر من كبائر الذنوب التي يُخشى على من اقترفها وأصر عليها أن يموت كافرا ، إن لم يتداركه الله برحمته فيتوب قبل موته .

• الشرك الأكبر جلي وخفي :

والشرك الأكبر أيضاً نوعان .. ظاهر جلي ، وباطن خفي .

فمن الشرك الأكبر الظاهر : عبادة إله أو آلهة مع الله سواء أكان هذا الاله كوكباً كالشمس والقمر ، أو كان جماداً كالأصنام والحجارة ، أو كان حيواناً كالعجل والبقر ، أو انساناً كالذين عبدوا فرعون وأمثاله من الملوك الذين ادعوا الألوهية أو ادعيت لهم ، ووجدوا في الناس من يصدقهم .

وكذلك الذين عبدوا « بوذا » أو المسيح عيسى ابن مريم ، أو كان من المخلوقات المغيبة عنا مثل الجن والشياطين والملائكة .. وقد وُجِدَ له عُبّاد في أمم شتى .

* * *

• من الشـــــرك الأكبـــر الخفي : الدعاء والاستعانة بالموتى :

ومن الشرك الأكبر نوع خفي ، يخفي على كثير من الناس ومنه دعاء الموتى و المقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات ، والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى وتفريج الكربات ، وإغاثة الملهوف ، والنصر على العدو ، مما لا يقدر عليه إلا الله ، واعتقاداتهم بأنهم يضرون وينفعون . وهذا أصل شرك العالم ، كما قال ابن القيم .

وسبب خفاء هذا الشرك أمران :

١ - أن الناس لا يسمون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة ، ويظنون أن العبادة إنما تنحصر في الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها .

والحقيقة أن روح العبادة - كما ذكرنا - هو الدعاء ، كما جاء في الحديث : « الدعاء هو العبادة » .

٢ - أنهم يقولون : نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين تدعوهم ونستغيث بهم آلهة أو أرباب لنا ، بل نعتقد أنهم مخلوقون مثلنا ، ولكنهم وسائط بيننا وبين الله وشفعاء لنا عنده .

وهذا من جهلهم بالله جل جلاله ، فقد حسبوه مثل الملوك الجبارين والحكام المستبدين ، لا يُستطاع الوصول إليهم إلا بوسطاء وشفعاء .

وهو نفس الوهم الذي سقط فيه المشركون قديماً ، وحين قالوا عن آلهتهم وأصنامهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[1] ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [2] .

ولم يعتقدوا يوما أن آلهتهم وأصنامهم تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ [3] .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ أَمْ مَنْ يُمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ ؟[4] .

ومع هذا الاعتقاد في الله تعالى ، أنه خالق السموات والأرض ، وأنه الرزاق المدبر المحيى المميت .. والاعتقاد في

---

(١) الزمر : ٣
(٢) يونس : ١٨
(٣) الزخرف : ٩
(٤) يونس : ٣١

الأصنام .. أنها مجرد وسائط وشفعاء لهم عند الله .. مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك ، وسماهم المشركين ، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويقولوا : « لاَ إلهَ إلاَّ اللّه » فمن قالها فقد عصم دمه وماله إلا بحق الإسلام .

ان اللّه تعالى غني عن الوسـائط رالشفعاء ، وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ (١) .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢) .

وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول ، ليس عليه حاجب ولا بواب .

* * *

• من الشرك الأكبر : اتخاذ غير اللّه مشرعاً :

ومن الشرك الأكبر الذي يدق ويخفي أيضاً على كثير من الناس ، اتخاذ غير اللّه مشرعاً أو ابتغاء غير اللّه حَكَماً .

وبعبارة أخرى : إعطاء بعض الناس لفرد أو جماعة حق التشريع المطلق لهم أو لغيرهم من البشر ، فيحلون لهم ويحرمون عليهم ما شاءوا ، ويشرعون لهم من الأنظـمة والقوانين ، أو يضعون لهم من المناهج والأفكار ، ما لم يأذن به اللّه تعالى ، وما يضاد

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) غافر : ٦٠

شرع الله سبحانه ، فيتبعهم الآخرون ويطيعونهم فيما شرعوا ووضعوا ، كأنه شرع إلهي ، أو حكم سماوي ، يُطاع ولا يُعصى .

إن الذي له الحق في التشريع لخلقه هو الله وحده . فهو الذي خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فمن حقه وحده أن يكلفهم ويأمرهم وينهاهم ويحل لهم ويحرم عليهم، لأنه رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وليس لأحد غيره من الربوبية والملك والألوهية ما له ، حتى يكون له سلطة الحكم والتشريع .

إن العالم هو مملكة الله تعالى ، والناس في هذه المملكة عبيده ورعاياه ، وهو سبحانه سيد هذه المملكة وحاكمها ، فله وحده أن يحكم ويشرع ويُحَلّل ويُحَرِّم ، وعلى الرعية أن يسمعوا ويطيعوا .

فمن أدعى من رعية هذه المملكة أن لأحد فيها حق الأمر والنهي والتحليل والتحريم والحكم والتشريع دون إذن من سيد المملكة أو حاكمها ، فقد جعل من بعض عبيد الملك شريكاً له في الملك ، منازعاً له في سلطة السيادة ، وفي اختصاصه بالحكم والسلطان .

ومن أجل ذلك حكم القرآن الكريم على أهل الكتاب بالشرك، وسماهم مشركين ، لأنهم أعطوا أحبارهم ورهبانهم حق التشريع لهم ، فأطاعوهم فيما أحلوا لهم وما حرّموا عليهم ، وقرن القرآن ذلك بعبادتهم للمسيح ابن مريم ، سواء بسواء .

قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

وهذه الآية قد فسرها النبي ﷺ لعدى بن حاتم الطائي ، وكان نصرانياً في جاهليته ، وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية . قال عدى : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ : « بلى .. إنهم حرَّموا عليهم الحلال ، وحلَّلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » [2] .

فقد دلت هذه الآية وما فسرها من حديث رسول الله ﷺ على أن من أطاع الله في معصية أو اتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً ، وجعله لله شريكاً ، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله ، والذي دلت عليه كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن الإله هو المعبود ، وقد سمى الله طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم عبادة لهم ، وسماهم أرباباً - أي شركاء لله تعالى في العبادة . وهذا هو الشرك الأكبر ، فكل من أطاع مخلوقاً واتبعه على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه رباً ومعبوداً

---

(١) التوبة : ٣١ (٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه .. وغيرهما .

وان لم يسمه بذلك كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُـــرَكَاءُ شَـــرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٢) .

وإذا كان هذا حكم القرآن والسنة فيمن اتخذ غير الله مشرعاً، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فكيف بمن جعل نفسه لله نداً ، فأعطاها حق الحكم والتشريع والتحليل والتحريم الذي هو من خصائص الألوهية ؟ !

* * *

• ألوان من الشرك الأصغر :

ودون الشرك الأكبر توجد ألوان وأنواع أخرى من الشرك ، تسمى « الشرك الأصغر » وهو من كبائر الذنوب ، بل أعظم عند الله من سائر الكبائر ... منها :

- الحلف بغير الله :

ومن الشرك الأصغر .. الحلف بغير الله تعالى ، كأن يقسم

---

(١) الأنعام : ١٢١ (٢) الشورى : ٢١

بالنبي أو بالكعبة الشريفة أو بولى من الأولياء ، أو كبير من الكبراء ، أو يقسم بالوطن ، أو بالآباء والأجداد أو بغير ذلك من المخلوقات ، فكل ذلك من الشرك ، ففي الحديث : « ... ومن حلف بغير الله فقد كفر – أو أشرك » ، (رواه الترمذي وحسنه) .

وذلك لأن في القَسم تعظيماً للمقسم به ، والذي ينبغي أن يُخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده ، لهذا جاء النهى عن الحلف بغيره ، قال ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم » ، وقال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليذر » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلىّ من أن أحلف بغيره صادقاً » .

ومن المعلوم في الدين ، أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر ، لكن الشرك – وإن كان شركاً أصغر – أكبر من كل الكبائر ، في نظر فقهاء الصحابة رضى الله عنهم [1] .

---

(١) الحالف بغير الله لا وفاء عليه ولا كفارة ، لأن هذا شرك ، والشرك لا حرمة له ، وإنما عليه أن يستغفر الله تعالى وأن يقول ما قاله الرسول ﷺ : « من حلف وقال في حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » (رواه البخاري) .

بين هذا الحديث أن كفارة الشرك تجديد التوحيد لا الإطعام ولا الصيام .

- لبس الحلقة والخيط :

التوحيد لا ينافي اتخاذ الأسـباب التي وضعها الله في الكون ، كاستعمال الطعام للشـبع ، والماء للري ، والدواء للعلاج، والسلاح للدفاع ، ونحو ذلك من الأسباب التي جعلها الله مؤدية إلى مسبباتها .

فإذا مرض الإنسان وعرض نفسه على طبيب ، وقرر له استعمال دواء أو إجراء جراحة ، أو غير ذلك ، فقام به ونفذه ، فليس ذلك خروجاً عن التوحيد .

إنما ينافي التوحيد اللجوء إلى أسباب خفية لم يشرعها الله ، لرفع البلاء بعد وقوعه أو للوقاية منه قبل وقوعه فيما زعموا .

ومن ذلك لبس حلقة من المعدن ، أو وضع خيط يُربط بالعضد، فقد روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين ، أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة - قال : أراها من صفر - فقال : « ويحك ما هذه » ؟ قال : من الواهنة تزيدك قال : « ألا إنها لا تزيديك إلا وهناً ، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ، ما أفلحت أبداً » .

وانما غلّظ ﷺ في الانكار على الرجل ، تحذيراً من الشرك بكل صوره وتعليماً للصحابة أن يسـدوا هذا الباب جملة وتفصيلاً.

ولهذا حين دخل حذيفة بن اليمان على مريض يعوده ، فوجد في عضده سيراً أو خيطاً يدفع به الحمى لم يسعه إلا أن قطعه ،

ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُـــؤْمِنُ أَكْـثَـرُهُمْ بِاللَّهِ إلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

- تعليق التمائم :

ومن هذا الباب تعليق التمائم ، وهى جمع تميمة ، وهى خرزة أو خرازات كان العرب يعلقونها وخاصة على الأولاد ، زاعمين أنها تدفع عنهم الجن أو تقيهم العين ونحوها ، فأبطلها الإسلام، وعلّمهم أن لا دافع ولا مانع إلا اللّه تعالى .

روى أحمد عن عقبة بن عامر مرفوعاً : « من تعلق تميمة فلا أتم اللّه له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع اللّه له » . وفي رواية : « من تعلق تميمة فقد أشرك » ومعنى « تعلق تميمة » أى علقها متعلقاً بها قلبه في طلب خير أو دفع شر .

وانما كانت شركاً ، لأن فيها طلب دفع الضر من غير اللّه تعالى . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ ، وإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

ومن هذه التمائم ما يُســــمى « الجامعة » أو « الحرز » أو « الحجاب » أو ما شابه ذلك من الأسماء ، فكلها من كبائرالمنكرات ، وإزالتها واجبة على كل مســتطيع . جاء عن سعيد بن

(١) يوسف : ١٠٦ (٢) الأنعام : ١٧

جبير : أنه من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة ، أى كمن أعتق رقبة .

فاذا كانت التميمة من آيات القرآن ، أو تشتمل على أسماء اللّه تعالى وصفاته ، فهل تدخل في النهى عن التمائم أم تُستثني منه ويجوز تعليقها ؟

اختلف السَلَف في ذلك ، فبعضهم رَخَّص فيها ، وبعضهم منع . والذي نختاره هو المنع من التمائم كلها وإن كانت من القرآن ، لعدة أدلة :

أولا : عموم النهى عن التمائم ، فان الأحاديث لم تستثن منها شيئاً .

ثانياً : سد الذريعة ، فإن الترخيص في تعليق التمائم إذا كانت من القرآن ، يفتح الباب لتعليق غيرها . وباب الشر إذا فُتِحَ لا يُسَد .

ثالثاً : أن هذا يُعَرِّض القرآن للامتهان ، حيث يحمله من علّقه في الأماكن النجسة،وفي وقت قضاء الحاجة وفي حالة الجنابة والحيض ونحوها .

رابعاً : أن في ذلك استخفافاً بالقرآن ومناقضة لما جاء له ، فإن اللّه أنزله ليهدي الناس للتي هى أقوم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لا ليتخذ تمائم وأحرازاً للنساء والأطفال .

- الرُّقَى :

وبما ينافي التوحيد : الرقى وهي كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهلية معتقدين أنها تدفع عنهم الآفات ، مستعينين بالجن أو مرددين بعض الأسماء الأعجمية أو الألفاظ غير المفهومة . فجاء الإسـلام فأبطل ذلك ، كما في الحديث : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » .

وقد جاء في الأثر : أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه رأى يوماً في عنق زوجته خيطاً فسألها : ما هذا ؟ فقالت : خيط رُقِيَ لي فيه من الحمى .. فجذبه فقطعه فرمى به ، ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أن الرقى والتمائم والتوِلة شرك » فقالت : لقد كانت عيني تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فاذا رقى سكنت، فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فاذا رقى كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول : « أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » .

فالرقى المحرمة ما كان فيها استعانة بغير الله تعالى ، أو كانت بغير اللسان العربي،فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك .

وما عدا ذلك فلا بأس بالرقية به . ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك قال : كنا نرقى في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك ؟ فقال : « اعرضوا على رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً » .

وقال السيوطي : فقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١ - أن تكون بكلام الله أو بأسمائه أو صفاته .

٢ - وباللسان العربي وما يُفهم معناه .

٣ - وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله تعالى.

والتوِلَة المذكورة في الحديث هى ضرب من أعمال السحرة لتحبيب الرجل إلى امرأته أو المرأة إلى زوجها .

- السحر :

ومن الشرك الذي حذَّر منه الإسلام : السحر ، وهو ضرب من التخييل والإيهام ، ومنه ما هو عزائم ورقى وعقد ونفث .

وإنما كان شركاً لأن فيه استعانة بغير الله تعالى من الجن والشياطين أو الكواكب ونحوها ، ولهذا جاء في الحديث : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك » ، وهو

من كبائر الذنوب في الاسلام وفي الأديان السماوية كلها ، جاء في القرآن على لسان موسى عليه السلام قوله : ﴿ ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [1] ، ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [2] .. وقد عدَّه النبي ﷺ في السبع الموبقات بعد الشرك .

وعلّمنا القرآن أن نستعيذ بالله من شر السحر وأهله ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [3] أي السواحر ، فإن السحرة إذا أرادوا عمل السحر ، عقدوا الخيوط ، ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدون . ومعنى النفث : النفخ مع شيء من الريق.

وقد ذهب كثير من أئمة السلف إلى أن الساحر كافر ، وأن السحر كفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رضى الله عنهم .

وجاء عن عدد من الصحابة أن عقوبة الساحر ضربه بالسيف .

ففي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال : كتب إلينا عمر ابن الخطاب ، أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح قتل الساحر عن حفصة أم المؤمنين ، وعن جندب من الصحابة رضى الله عنهم .

وفرق بعضهم بين من يستعين في سحره بالكفر فيكفر ، وإلا فهو فاسق.

---

(١) طه : ٦٩
(٢) يونس : ٨١
(٣) الفلق : ٤

وكما أن السحر حرام فان المصدق لأهله ، الساعي إليهم لعمل السحر ، شريك لهم في الإثم ، قال ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، مدمن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم » (رواه أحمد وابن حبان في صحيحه).

- التنجيم من السحر :

ومن أنواع السحر ما يُعرف باسم التنجيم ، والمراد به هنا ما يزعم أهله أنهم يعرفون ما يخبئه المستقبل من أحداث عامة وخاصة عن طريق النجوم والنظر فيها . وهذا ضرب من السحر والدجل ، جاء في الحديث : « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر » . (رواه أبو داوود بإسناد صحيح).

وليس هذا الحديث فيمن يتعلم من علم النجوم أبعادها ومنازلها وأحجامها ومداراتها ونحو ذلك بما يُعرف بالملاحظة وآلات الرصد ونحوها . وهو ما يُعرف باسم « علم الفلك ».. فهذا علم له أصوله وقواعده ووسائله .

ولكن هذا الحديث فيمن يتعلم من هذا العلم ما يؤدي إلى الكفر ، كادعاء معرفة الغيب ، فهذا من السحر والشرك ، إذ لا يعلم الغيب إلا الله .

- التِوَلة سحر وشرك :

ومن السحر ما شاع من قديم بين السحرة ، وهو كتابة بحروف وكلمات وتعليق بعض الأشياء ونحو ذلك . بدعوى تحبيب المرأة الى الرجل ، أو تحبيب الرجل إلى المرأة .

وقد سبق في الحديث : « إن الرقى والتمائم والتِوَلة شرك ».

- الكهانة والعرافة :

ومثل المنجم الكاهن والعرّاف .

والكاهن هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل ، أو هو الذي يُخبر عما في الضمير .

والعرّاف اسم للكاهن والمنجم والرَّمال ومن شابه هؤلاء من كل من يدعي معرفة المغيبات ، سواء ما يكنه المستقبل أو ما يكنه الضمير . وسواء أكان ذلك عن طريق الاتصال بالجن أم النظر أو الخط في الرمل أو قراءة الفنجان أو خلاف ذلك .

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال : « من أتى عرافاً ، فسأله عن شيء فصدَّقه ، لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً ».

وروى أبو داوود عنه ﷺ : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد - ﷺ » .

وذلك لأن مما أُنزل على محمد ﷺ أن الغيب لا يعلمه إلا الله، قال تعالى : ﴿ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوات والأرض الغَيْبَ إلاَّ اللَّهُ ﴾ (١) ،﴿ وَعِنْـدَهُ مَفَاتِـحُ الغَيْـبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ ﴾ (٢) ،﴿ عَالِمُ الغَيبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحَداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ (٣) .. حتى النبي ﷺ لم يكن ليعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله عن طريق الوحي . ولهذا خاطبة بقوله : ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إلاَّ ما شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إنْ أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

كما أن الجن الذين يستعين بهم السحرة والكهنة ليس لهم قدرة على معرفة الغيب ، وقد ذكر القرآن عن جن سليمان أنهم لم يعلموا موت سليمان : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ ﴾ (٥) .

---

(١) النمل : ٦٥
(٢) الأنعام : ٥٩
(٣) الجن : ٢٦ - ٢٧
(٤) الأعراف : ١٨٨
(٥) سبأ : ١٤

ولهذا كان تصديق الكهنة والعرافين - في زعمهم معرفة الغيب - كفراً بما أنزل الله من آيات بينات .

وإذا كان إتيان هؤلاء وتصديقهم بهذه المنزلة من الشناعة في الدين ، فما بالك بهؤلاء الكهنة والعرافين أنفسهم ؟ إنهم براء من الدين كما أن الدين بريء منهم ، جاء في الحديث : « ليس منّا من تطيَّر أو تُطيِر له ، أو تَكهن أو تُكهِن له ، أو سَحر أو سُحِر له » . (رواه البزار بإسناد جيد) .

- النذر لغير الله :

ومن الشرك النذر لغير الله تعالى ، كالنذر للقبور وأصحابها . ذلك أن النذر عبادة وقُربة ، والعبادة لا يجوز أن تُوجه الا الى الله تعالى . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُم مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [1] . والمراد بالظالمين في الأية : المشركون . فان الشرك ظلم عظيم ، ومن قصد بالعبادة غير الله تعالى فقد أشرك .

قال بعض العلماء : النذر الذي ينذر له أكثر العوام - على

---

(١) البقرة : ٢٧٠

ما هو مُشَاهَد - كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى مقبرة بعض الصالحين ، ويقول : يا سيدي فلان ، إن رد الله غائبي أو عُوفي مريضي أو قُضِيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الشمع والزيت كذا - فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه :

منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق .

ومنها : أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك .

منها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله واعتقاد ذلك كفر .

ثم قال : إذا عَلِمتَ هذا ، فما يُؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ويُنقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها فحرام بإجماع المسلمين .

وإذا كان هذا النذر حراماً ، فلا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز لثلاثة أدلة :

الأول : أنه جاء على غير أمر النبي ﷺ وقد قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (رواه مسلم) .

الثاني : أنه نذر لغير اللّه فهو شرك ، والشرك لا حُرمة له ، فهو مثل الحلف بالمخلوقات ، لا يـجب الوفاء به ، ولا كفارة فيه، وليس فيه إلا الاستغفار ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيميـة .

الثالث : أنه نذر معصية ، وقد بيَّنت السنة أن كل نذر اشتمل على معصية أو شرك لا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز الوفاء به ، ففي صحيح البخاري عن عائشة مرفوعاً : « من نذر أن يطيع اللّه فليطعه ، ومن نذر أن يعصي اللّه فلا يعصه » .

وعن ثابت بن الضحاك : أن رجلا نذر أن ينحر ابلا ببوانة ، فسأله النبي ﷺ فقال :« هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد »؟ قالوا : لا . قال :« فهل كان فيها عيد من أعيادهم »؟ قالوا : لا . فقال رسول اللّه ﷺ : « أوف بنذرك . فإنه لا وفاء لنذر في معصية اللّه ، ولا فيما لا يملك ابن آدم ». (رواه أبو داوود) .

- الذبح لغير اللّه :

ومن الشرك : تقديم القرابين وذبح الذبائح لغير اللّه تعالى .

فقد جرت عادة المشركين في كل أمة أن يتقربوا بذبائحهم الى آلهتهم وأصنامهم . فأبطل الإسلام ذلك وحرم ﴿ مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ

اللَّه بِهِ ﴾ (١) أى ما ذُكِرَ عليه اسـم غير اللَّه من صنم أو نحوه ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ (١) أى ما نُصِـبَ من حـجـر أو شجر أو صنم ليُعبد أو يُعَظَّم أو يُتبرك به . وأمر أن يكون الذبح للَّه وحده .

ولهذا أمر اللَّهُ رسـوله أن يجعل صلاته ونحره للَّه : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ (٢) ، وأن يعلن في المشركين ، أن هديه مخـالـف لهم في صلاته ونُسُكه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ (٣) . والنسك هو الذبح بقصد التقرب .

وعن عليّ رضى اللَّه عنه قال : حدثني رسول اللَّه ﷺ بأربع كلمات : « لعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه ، لعن اللَّه من لعن والديه ، لعن اللَّه من آوى محدثاً (٤) ، لعن اللَّه من غيَّر منار الأرض » (٥) . (رواه مسلم) .

---

(١) المائدة : ٣ - بلفظ : ﴿ وما أهل ..... ﴾ .

(٢) الكوثر : ٢ (٣) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

(٤) آوى محدثا : حمى مجرماً يسـتحق العقاب بأن تسـتر عليه أو نصره بنفوذه وسلطانه .

(٥) غير منار الأرض : أى معالمها وحدودها . وذلك ليدخل في ملكه ما ليس من حقه .

وعن طارق بن شِهاب : أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب »- أى بسبب ذباب - قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال :« مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يجوزه أحد حتى يُقَرِّب إليه شيئاً ، فقالوا لأحدهما: قَرِّب . قال : ليس عندي شيء أُقَرِّب ، قالوا له : قَرِّب ولو ذباباً .. فقرَّب ذباباً ، فخلُّوا سبيله ، فدخل النار،وقالوا للآخر : قَرِّب .. فقال : ما كنت لأُقَرِّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » (رواه أحمد).

أثنى النبي ﷺ على هذا الرجل المؤمن وأخبر عن دخوله الجنة ، لأنه صبر على القتل ، ولم يرض بتقديم أى شيء لغير الله عز وجل . لأن القضية قضية مبدأ قبل أى شيء . ومن قبل أن يُقَدِّم لغير الله ذباباً أوشك أن يُقَدِّم بعد ذلك جملا !

ومن حِرص الإسلام على التوحيد ومجانبة الشرك : أنه أمر ألا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله . كما في حديث ثابت بن الضحاك السابق في الرجل الذي نذر أن ينحر إبلاً ببوانة .

- الطيرة شرك :

ومن الشرك « الطَيرة » ، ومعناها التشاؤم ببعض الأصوات المسموعة أو الأشياء المرئية أو نحو ذلك ، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كسفر أو زواج أو تجارة أو نحو ذلك ، فقد دخل في الشرك لأنه لم يخلص توكله على الله ، ولأنه التفت إلى سواه ، وجعل للتطير في قلبه نصيباً .

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : « من ردته الطَيرة عن حاجته فقد أشرك » ، فقالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : «أن تقول : اللّهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » .

وأما ما يجده الإنسان في نفسه من انقباض أو توجس للشر من بعض الأشياء فلا يؤثر ولا يضر ، إذا مضى في طريقه متوكلاً على الله ، ولم يرده التطيـر عن قصده وغايته . روى أبو داوود والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً : « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا ، إلاً .. ولكن يذهبه الله بالتوكل » .

ومعنى « وما منا إلاً .. » أى ما منا أحد إلا وقر في قلبه شيء من ذلك بمقتضى الضعف البشري ، ولكن مزية المؤمن أن

الله يُذهب من قلبه تلك الخواطر من أثر توكله على الله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [1] .

وضد الطِّيرة : الفأل . وهو توقع الانسان الخير ، بناء على كلام سمعه أو شيء أبصره أو نحو ذلك .

وكان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن ، ففي الحديث : « يعجبني الفأل . قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

مثال التفاؤل : أن يكون رجل مريض ، فسمع آخر يقول : يا سالم ، فيتفاءل بالسلامة والصحة .. فهذا أمر حسن ، لأنه داع الى سعة الأمل وحسن الظن بالله تعالى ، بخلاف الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله تعالى رتوقع البلاء من غير سبب يُفضي إليه .

* * *

(١) الطلاق : ٣

الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص ، وحارب الشرك أكبره وأصغره ، وحذّر منه أشد التحذير ، واتخذ لذلك وسائل شتى ، أبرزها سد كل المنافذ التى تهب منها ريح الشرك .

من هذه المنافذ ما يأتي :

• الغلو في تعظيم النبي ﷺ :

نهى النبي ﷺ - عن الـغـلو في تعظيمه ومدحـــه فقـــال: « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسـى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد اللّه ورسوله » (متفق عليه) .

والقرآن الكريم أثنى عليه ﷺ بالعبودية للّه في أشرف المقامات ، تأكيداً لهذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً ﴾ (١) ، وقـوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (٣) .

---

(١) الكهف : ١ (٢) الاسراء : ١ (٣) النجم : ١٠

وكان صلوات الله عليه إذا رأى أو سمع ما يؤدي إلى الغلو في شخصه ، زجر من قال ذلك أو فعله ، ونبهه إلى الحق والسداد .

روى أبو داوود بسند جيد عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رســول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا .. قال : « السيد الله تبارك وتعالـى » .

وعن أنس أن أناساً قالوا : يا رسـول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يســـتهوينكم الشـــيطان .. أنا محمد عبد الله ورسوله . وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل » (رواه النسائي بسند جيد) .

ولما قال له رجل : ما شاء الله وشئت قال : « أجعلتني لله نداً ؟ قل : ما شاء الله وحده » . (رواه النسائي) .

* * *

• الغلو في الصالحين :

ومما نهى عنه الإسلام وحذَّر منه ، الغلو في شأن الصالحين .

فقد غلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه أبناً لله ، أو ثالث ثلاثة ، وقال بعضهم : إن الله هو المسيح ابن مريم .

وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أربـاباً من دون الله . من هنا حذّر الله من غلو أهل الكتاب وشنّع عليهم في ذلك فقال : ﴿ ياأَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ ﴾ [1] ، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[2]

وأول شرك وقع في الأرض – هو شرك قوم نوح – كان سببه الغلو في الصالحين . جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس في الحديث عن آلهتهم « ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر » قال: « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم . ففعلوا .. ولم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم ، عُبِدَت » .

---

(١) النساء : ١٧١

(٢) المائدة : ٧٧

وقال بعض السَلَف : لما ماتوا عَلّقوا على قبورهم ، ثم صوّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .

ومن هنا نعلم أن غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم الله ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات - يؤدي إلى أنواع من الشرك ، كالنذر لهم والذبح لهم والاستعانة بهم ، والإقسام بهم على الله ونحو ذلك ، وقد يفضي بهم الغلو إلى الشرك الأكبر وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيراً في الوجود ، وراء الأسباب والسنن الكونية ، فيُدْعَون من دون الله أو مع الله ، وهذا هو الإثم العظيم والضلال البعيد .

* * *

● تعظيم القبور :

ومما حذّر منه الإسلام أشد التحذير . تعظيم القبور ، وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضي إلى تعظيم القبور منها :

١ - إتخاذها مساجد :

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت

بخمس : « ألا إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إني أنهاكم عن ذلك ».

وعن عائشة وابن عباس قالا : « لما نزل برسول الله ﷺ – أي في حالة الاحتضار – طفق يطرح خميصة له على وجهه . فإذا اغتم كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يُحَذِّر ما صنعوا .
(متفق عليه) .

٢ - الصلاة إليها :

ففي الحديث : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها »
(رواه مسلم) .

أي لا تجعلوا القبور في اتجاه القبلة .

٣ - إضاءتها وإيقاد السرج عليها :

في الحديث : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » . (رواه أحمد والترمذي وغيرهما) .

٤ - البناء عليها وتجصيصها :

روى مسلم عن جابر قال : « نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر ، وأن يُقعد عليه وأن يُبني عليه بناء » .

٥ - الكتابة عليها :

لحديث جابر : « أنه ﷺ نهى أن تُجصص القبور وأن يُكتب عليها » (رواه أبو داوود والترمذي) .

٦ - تعليتها ورفعها :

لحديث عليّ : « أن النبي ﷺ بعثه وأمره ألا يدع قبراً مشرفاً إلا سوّاه » . (رواه مسلم) .

كما جاء في سنن أبي داوود نهيه عليه الصلاة والسلام أن يزاد عليها غير ترابها من الأحجار والآجر ونحوها . ولهذا كان السَلَف يكرهون الآجر على قبورهم .

٧ - إتخاذها عيداً :

روى أبو داوود عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » .

وروى أبو يعلي بسنده عن عليّ بن الحسين ، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها ويدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن

جدي عن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم » ومعنى اتخاذ القبر عيداً قصده للاجتماع فيه والقعود عنده ونحو ذلك .

وقبر رسول الله ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض ، فإذا نهى عن اتخاذه عيداً فقبر غيره أولى بالنهى ، كائناً من كان . ويكفي أن يُصَلِّي ويُسَلِّم على الرسول ﷺ فتصله صلاته وسلامه حيثما كان .

* * *

● الحكمة في هذا التحذير :

والحكمة في نهى الإسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر كما رأينا في قوم نوح ، وكما هو مشاهد إلى اليوم . فالغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً معبودة ولهذا قال ﷺ : « اللّهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(رواه مالك) .

ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه أن ما حذَّر منه الرسـول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الإسـلام . فقد اتخذوا

قبور بعض الصالحين أعياداً ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقِباب ، وأوقدوا عليها السُرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذور ، وطافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها لثماً وتقبيلاً ، ومنهم من يسجد لها ، ويُعَفِّر الخدود على ترابها . ويقف خاشعاً مستكيناً ، يستغيث بأصحابها ، يسأله - مشافهة - قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء ، وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة في رِقاع إلى صاحب القبر ، وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

* * *

• التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها :

ومن الشرك الذي حاربه النبي ﷺ التبرك بالأشجار والأحجار والقبور ونحوها . على اعتقاد أن لها سراً أو بركة خاصة ، ينالها من يتمسح بها ، أو طاف حولها ، أو زارها ، أو جلس إليها .. وهذا مما يُفضي بمن فعله إذا تمادى فيه إلى الشرك

الأكبر . فإن أصنام العرب الكبرى كانت إما صخرة كاللات ، أو شجرة كالعزى ، أو حجرا كمناة . ولهذا حذّر النبي ﷺ منه وزجر عنه .

وقد روى الترمذي عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين - ونحن حديثو عهد بكفر ، وللمشركين سِدْرَة - شجرة نبق - يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط .. فمررنا بسِدْرَة فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَل لَنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [1] لتركبن سَنَن من كان قبلكم » . (رواه الترمذي وصححه) .

فالظاهر أنهم كانوا يريدون مجرد التبرك بهذه الشجرة وتعليق أسلحتهم عليها ، فزجرهم النبي ﷺ هذا الزجر الشديد ، سداً للذريعة إلى الشرك .

---

(١) الأعراف : ١٣٨

ومما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين قد انحرفوا عن هَدى رسول الله ﷺ وأتبعوا سَنَن من كان قبلهم ، فاتخـــــــذوا لهم « أنصاباً » يتبركون بها ، يتمسحون بها ، ويدعون عندها ، ويتوسلون بها ، ويتعلقون بها ، تعلقاً يشبه تعلق المشركين بالأصنام . وكم في بلاد المسلمين من « ذواتِ أنواط » مما زجر عنه نبيهم ﷺ .

والواجب على المسلمِين وعلى حكامهم وعلمائهم خاصة إزالة هذاً المنكر وهدم هذه الأنصاب ومحوها من شجرة أو عمود ، أو قبر أو خشبة ، أو عين أو حجر أو غيرها ، اقتداءً بما فعله النبي ﷺ حين بعث علياً وأمره بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض . كما في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي عليّ رضى الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ . ألا أدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشـــرفاً إلا سويته ».

قال الإمام أبو بكر الطرطوسي المالكي : « ولما بلغ عمر رضى الله عنه أن الناس يأتون الشجرة التي بايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ فيصلون عندها ، أرسل فقطعها ، خوفاً على المسلمين من الفتنة » .

فاذا كان هذا فعل عمر بالشجرة التي ذكرها الله في القرآن، وبايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ ، فماذا يكون حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي عظمت الفتنة بها ، واشتدت البلية بها !

وقال الإمام الطرطوسي : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سِدْرَةَ أو شجرة يقصدها الناس ويُعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِها ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهي « ذات أنواط » فاقطعوها .

وعن المبرر بن سويد قال : « صليت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه في طريق مكة صلاة الصبح ، فقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ [1] ، و﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾[1] ثم رأى الناس يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه . فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً ، فمن أدركته

---

(١) أى سورة الفيل . (٢) أى سورة قريش .

الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وهذا من فقه عمر رضى اللّه عنه وحرصه على عقيدة العامة ، وخشيته عليهم من الغلو والانحراف .

* * *

• الألفاظ الموهمة للشرك :

ومما حذّر منه النبي ﷺ الألفاظ التي فيها إيهام للشرك وإساءة للأدب مع اللّه ، وذلك حماية منه لحمى التوحيد .

(أ) من ذلك قول القائل : ما شاء اللّه وشاء فلان ، أو باسم اللّه واسم الأمير ، أو اسم الشعب ، وقد مرّ بنا إنكار النبي ﷺ لمن قال له ذلك . روى حذيفة عنه ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء اللّه وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء اللّه ثم شاء فلان » . (رواه أبو داوود بسند صحيح) .

(ب) ومن ذلك قولهم : لولا اللّه وفلان ، أو اعتمدت على اللّه وعليك ، وما شابه هذه الألفاظ . قال ابن عباس في تفسير

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً ﴾ [1] : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل ، على صفاة سوداء ، وفي ظلمة الليل ، وهو أن تقول : واللّه وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء اللّه وشئت ، وقول الرجل : لولا الرجل وفلان .. هذا كله به شرك » (رواه ابن أبي حاتم) .

(جـ) ومن ذلك التسمى بأسماء اللّه تعالى ، أو بما لا ينبغي إلا لله .

روى أبو داوود عن أبي شريح أنه كان يُكَنَّي أبا الحكم ، فقال له النبي ﷺ : « إن اللّه هو الحكم واليه الحكم » ، ثم كُنَّى بولده ، شريح أكبر أولاده .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضى اللّه عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أخنع اسم [2] عند اللّه رجل تسمى : ملك الأملاك .. لا مالك إلا اللّه » قال سفيان بن عيينة مثل : « شاهنشاه عند العجم ، لأن معناها ملك الملوك » .

---

(١) البقرة : ٢٢

(٢) أخنع اسم : أوضع اسم وأذله .

وفي رواية : « أغيظ رجل على اللّه يوم القيامة وأخبثه » .

(د) ومن ذلك أن يسمى الانسان باسم معبد لغير اللّه، كعبد الكعبة أو عبد النبي ، أو عبد الحسين ، أو عبد المسيح ، ونحو ذلك ، فقد نقل ابن حزم الاجماع على تحريم التسمية بذلك ، باستثناء عبد المطلب .

(هـ) ومن ذلك : سب الدهر عند نزول الشدائد والنكبات بالناس . فإن سب الدهر حينئذ كان نوعاً من شكوى اللّه تعالى أو السخط عليه ، فإنه هو الذي يُدَبِّر الأمر ، ويُقَلِّب الليل والنهار ، وهو الفاعل لكل ما في الكون من أحداث .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح : « قال اللّه تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، أُقَلِّب الليل والنهار » .

* * *

آثار التوحيد في الحياة

إن التوحيد الخالص من شوائب الشرك إذا تحقق في حياة فرد أو قامت عليه حياة أمة آتي أينع الثمرات . وحقق أنفع الآثار في الحياة . ومن ثمرات التوحيد وآثاره :

(أ) تحرير الإنسان :

فالشرك بكل صوره ومظاهره ليس إلا امتهاناً للإنسان ، وإذلالاً له ، حيث يلزمه الخضوع للمخلوقات ، والعبودية لأشياء أو أناس لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نُشوراً .

أما التوحيد فهو في الواقع تحرير للإنسان من كل عبودية إلا لربه الذي خلقه فسوّاه ، تحرير لعقله من الخرافات والأوهام ، وتحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام ، وتحرير لحياته من تسلط الفراعنة والأرباب والمتألهين على عباد الله .

ولهذا قاوم زعماء الشرك وطغاة الجاهلية دعوات الأنبياء عامة ، ودعوة الرسـول خاصة ، لأنهم كانوا يعلمون أن معنى « لا إله إلا الله » : إعلان عام لتحرير البشر ، وإسقاط لكل

الجبابرة من عروش تألههم الكاذب ، وإعلاء لجباه المؤمنين فلا تطأطئ إلا ساجدة لله رب العالمين .

(ب) تكوين الشخصية المتزنة :

والتوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة ، التي تميزت في الحياة وجهتها ، وتوحدت غايتها ، وتحدد طريقها ، فليس لها إلا إله واحد تتجه إليه في الخلوة والجلوة،وتدعوه في السرآء والضرآء ، وتعمل على ما يرضيه في الصغيرة والكبيرة .

بخلاف المشرك الذي تقسمت قلبه الآلهة ، وتوزعت حياته المعبودات ، فحيناً يتجه إلى الله وأحيانا إلى الأصنام ، وحيناً إلى هذا الصنم ، وحيناً إلى ذاك .

ومن هنا قال يوسف عليه السلام : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ؟ (٢) مثَّل المؤمن بعبد له سيد واحد عرف ما يُرضيه وما يُسخطه ، فوقف عند ما يُرضيه واستراح

---

(١) يوسف : ٣٩ (٢) الزمر : ٢٩

إليه ، ومثَّل المشرك بعبد له أكثر من سيد ، هذا يوجهه إلى الشرق ، وذاك إلى الغرب ، وهذا يأخذه إلى اليمين ، وآخر إلى اليسار ، فهم شركاء متشاكسون ، وهو بينهم مشتت موزع لا ثبات له ولا قرار .

(جـ) التوحيد مصدر لأمن النفس :

والتوحيد يملأ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة ، فلا تستبد به المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك ، فقد سد منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم : الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت ، والخوف مما بعد الموت ..

أما المؤمن الموحد فلا يخاف شيئاً ولا أحداً الا الله ، ولهذا تراه آمناً إذا خاف الناس ، مطمئناً اذا قلق الناس ، هادئاً إذا اضطرب الناس ، وفي هذا يذكر القرآن حوار ابراهيم مع قومه المشركين حين خوفوه بأصنامهم وآلهتهم الزائفة ، فرد عليهم متعجباً ومعجبًا بقوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا،

فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ، إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ ! [1] ثم بيّن سبحانه وتعالى من يستحق الأمن من الفريقين فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ (أى بشرك) أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [2] وهذا الأمن ينبع من داخل النفس لا من حراسة الشرطة .. وهذا أمن الدنيا . وأما أمن الآخرة فهو أعظم وأبقى ، لأنهم أخلصوا لله ولم يخلطوا توحيدهم بشرك .

روى البخاري عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قلنا : يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون .. أوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] ..

فمعنى ﴿ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ : أنهم أخلصوا دينهم لله ، فلم يشوبوا توحيدهم بشرك .

---

(١) الأنعام : ٨١
(٢) الأنعام :٨٢
(٣) لقمان : ١٣

(د) التوحيد مصدر لقوة النفس :

والتوحيد يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة ، لما تمتلىء به نفسه من الرجاء في الله ، والثقة به ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والاستغناء عن خلقه ، فهو راسخ كالجبل ، لا تزحزحه الحوادث ، ولا تزعزعه الكوارث .

كلما ألمت به نازلة ، أو حلت بساحته شدة،رفض اللجوء إلى الخلق ، واتجه بقلبه إلى الخالق ، إياه يسأل ، ومنه يستمد ، وعليه يعتمد ، لا يرجو غيره ، في كشف الضر ، وجلب الخير ، ولا يمد يده إلى أحد إلا إلى الله ضارعاً داعياً منيباً إليه .

شعاره قول النبي ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله »، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

ألا ترى الى هود عليه السلام حين خوّفه قومه بكيد الأصنام له

---

(١) يونس : ١٠٧

قال : ﴿ إنّي أُشْهِدُ اللّهَ واشْهَدُوا أنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ * إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) منطق قوي ، يُعَبِّر عن نفس واثقة ، وعزيمة صُلبة ، وإيمان لا يهن ولا يستكين، وروح لا تعرف الضعف ولا الخوف ، لأنها تستمد قوتها من التوكل على الله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإنَّ اللّهَ عزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

(هـ) التوحيد أساس الإخاء والمساواة :

وإذا كان التوحيد يُعد أساساً لحرية الإنسان وإشعاره بعزته وكرامته ، فهو أساس أيضاً لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية ، لأن الأخوة والمساواة لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أرباباً لبعض . فأما إذا كانوا كلهم عباد الله ، فهذا هو أصل المساواة والإخاء بين الناس . ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض ورؤساء الدول تُختم بهذه الآية الكريمة : ﴿ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ

---

(١) هود : ٥٤ - ٥٦ (٢) الأنفال : ٤٩

اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) .

وكان من أدعية النبي ﷺ عقب الصلوات هذا الدعاء الرائع العظيم : « اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك . اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك . اللّهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » (٢) .

وهذه الشهادات الثلاث المذكورة من النبي ﷺ يرتبط بعضها ببعض.

فإعلان الأخوة الانسانية العامة - أن العباد كلهم إخوة - مبني على الشهادتين الأوليين : تفرد الله تعالى بالألوهية ، فلا شريك له ولا أرباب معه ، ولا يستحق الخضوع والعبادة غيره .

وعبودية محمد ﷺ لله ، وتبليغه عنه ، ينفي عنه كل شبهة أو رائحة للألوهية ، فليس إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثلث إله ، كما زعم النصاري للمسيح .

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) رواه الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم.

وإذا تقررت هاتان الحقيقتان : ألوهية الله وحده ، وعبودية الناس جميعاً له ، وعلى رأسهم محمد رسوله ومصطفاه ﷺ نرتب على ذلك تقرير الحقيقة الثالثة وهى : أن عباد الله إخوة متساوون ، فلا تمييز عنصري ، ولا تفرقة بين الألوان ، ولا تفاضل بالأنساب : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

* * *

مفاسد الشرك وأضراره

للشرك مفاسد وأضرار كثيرة في حياة الفرد والمجتمع أهمها :

١ - الشرك مهانة للإنسانية :

إنه إهانة لكرامة الإنسان وانحطاط بقدره ومنزلته ، فقد استخلفه الله في الأرض وكرّمه ، وعلّمه الأسماء كلها ، وسخرّ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، وجعل له السيادة على كل ما في هذا الكون ، ولكنه جهل قدر نفسه وجعل بعض عناصر هذا الكون إلهاً معبوداً يخضع له ويذل ويسـجد ، وهو

---

(١) الحجرات : ١٣

سيد الخليقة المكرم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) .

وأى إهانة للإنسان أكبر من أن يرى - إلى يومنا هذا - مئات الملايين من البشر يعبدون البقرة التي سخرها الله للإنسان لتخدمه وهى صحيحة ، ويأكلها وهى ذبيحة ، فإذا هى معبود مقدس ؟! ولهذا صوَّر القرآن الكريم كيف ينحط الشرك بأهله فقال : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢) .

٢ - الشرك وكر للخرافات :

الشرك وكر للخرافات والأباطيل . لأن الذي يعتقد بوجود مؤثر غير الله في الكون ، من الكواكب أو الجن أو الأشباح أو الأرواح أو غير ذلك ، يصبح عقله مستعداً لقبول كل خرافة وتصديق كل دجال . وبهذا تروج في المجتمع المشرك بضاعة

---

(١) فصلت : ٣٧ (٢) الحج : ٣١

الكهنة والعرافين والسحرة والمنجمين،وأشباه هؤلاء ممن يدَّعون معرفة الغيب ، والاتصال بالقُوى الخفية في الوجود .

كما يشيع في مثل هذا المجتمع إهمال الأسباب والسنن الكونية ، والاتكال على التمائم والرُقى الشركية والسحر والتولة ونحوها .

٣ - الشرك ظلم عظيم :

الشرك ظلم عظيم . ظلم للحقيقة ، وظلم للنفس ، وظلم للغير.

ظلم للحقيقة ، لأن أعظم الحقائق أن لا إله إلا الله ولا رب غيره ، ولا حَكَم سواه ، ولكن المشرك اتخذ غير الله إلهاً ، ويغى غير الله رباً ، وابتغى غيره حَكَماً .

وظلم للنفس ، لأن المشرك جعل نفسه عبداً لمخلوق مثله أو دونه ، وقد خلقه الله حراً .

وظلم للغير ، لأن من أشرك بالله غيره ، فقد ظلمه ، حيث أعطاه من الحق ما ليس له .

٤ - الشرك مصدر للمخاوف :

والشرك مصدر للمخاوف والأوهام . كما أن التوحيد مصدر

للأمن والطمأنينة . فإن الذي يتقبل عقله الخرافات ويُصَدِّق الأباطيل والتُرهات ، يصبح خائفاً من جهات شتى : من الآلهة وسدنة الآلهة ، ومن الأوهام التي ينشرها هؤلاء السدنة ، والكهنة ، وأتباعهم ، ويروجونها بين الناس . لهذا ينتشر في جو الشرك التطير والتشاؤم والرعب من غير سبب ظاهر كما قال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ (١) .

٥ - الشرك معطل لإيجابية الإنسان :

والشرك مُعَوِّق للعمل النافع ، مُعَطِّل لإيجابية الإنسان واعتماده على نفسه - بعد الله - ذلك لأنه يعلم أصحابه الاتكال على الشفعاء والوسطاء، فهم يرتكبون الموبقات ، ويقترفون الآثام ، معتمدين على أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله .

وهذا ما كان يعتقده مشركو العرب في آلهتهم وأصنامهم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٥١ (٢) يونس : ١٨

ومثل هؤلاء النصارى الذين يعملون ما شاء لهم الهوى من المنكرت معتقدين أن ربهم - المسيح - قد كفَّر عنهم الخطايا حين صُلِبَ - بزعمهم - وفدى البشر .

٦ - آثار الشرك في الآخرة :

تلك هى آثار الشرك في الدنيا ، أما في الآخرة فيكفي أنه الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ (١) .

وليس للمشرك مصير الا النار . أما الجنة فحرام عليه أن يدخلها . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٢) .

وقال ﷺ : « من لقى الله يشرك به شيئاً دخل النار » .

وفي الختام : نستعيذك اللَّهم مما استعاذ منه عبدك ورسولك محمد : « اللَّهم إنَّا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً تعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » .

* * *

(١) النساء : ٤٨ (٢) المائدة : ٧٢

محتويات الكتاب

الصفحة

الإيمان بالله أصل العقائد كلها (٣ - ٢٦)

الصفحة

لا إله إلا الله . . عنوان التوحيد(٢٧ - ٤١)

الشرك (٤٢ - ٦٦)

الصفحة

الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك(٦٧ - ٨٠)

الصفحة

آثار التوحيد في الحياة (٨١ - ٨٨)

مفاسد الشرك وأضراره (٨٨ - ٩٢)

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية : ٤١٢٣ / ٨٩
الترقيم الدولي : ١ - ١٨٧ - ٣٠٧ - ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ــ ت : ٣٩١١٨٦٢

كتب للمؤلف

١ ـ الحلال والحرام فى الإسلام

٢ ـ الإيمان والحياة.

٣ ـ الخصائص العامة للإسلام.

٤ ـ العبادة فى الإسلام

٥ ـ ثقافة الداعية

٦ ـ فقة الزكاة (جزءان).

* سلسلة حتمية الحل الإسلامى :ـ

٧ ـ * الحلول المستوردة
وكيف جنت على أمتنا.

٨ ـ * الحل الإسلامى .. فريضة وضرورة.

٩ ـ * بينات الحل الإسلامى ..
وشبهات العلمانيين والمتغربين.

١٠ ـ مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام.

١١ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء.
كما تجريه المصارف الإسلامية.

١٢ ـ الصبر فى القرآن الكريم.

١٣ ـ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.

١٤ ـ التربية الإسلامية ، ومدرسة حسن البنا.

١٥ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.

١٦ ـ جيل النصر المنشود.

١٧ ـ وجود الله.

١٨ ـ حقيقة التوحيد.

١٩ ـ نساء مؤمنات.

٢٠ ـ ظاهرة الغلو فى التكفير.

٢١ ـ الناس والحق.

٢٢ ـ درس النكبة الثانية.

٢٣ ـ عالم وطاغية.

٢٤ ـ الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد.

٢٥ ـ عوامل السعة والمرونة
فى الشريعة الإسلامية.

٢٦ ـ الوقت فى حياة المسلم.

٢٧ ـ أين الخلل؟

٢٨ ـ الرسول والعلم.

٢٩ ـ نفحات ولفحات «ديوان شعر».

٣٠ ـ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه.

٣١ ـ فتاوى معاصرة.

٣٢ ـ شريعة الإسلام.

٣٣ ـ الصحوة الإسلامية [illegible]

٣٤ ـ قضايا معاصرة [illegible]

٣٥ ـ الاجتهاد فى الش[illegible]

٣٦ ـ المنتقى من الترغ[illegible]
(فى جزءين).

٣٧ ـ الصحوة الإسلامي[illegible]
العربى والإسلام [illegible]

٣٨ ـ الفتوى بين الان[illegible]

٣٩ ـ من أجل صحوه [illegible]

٤٠ ـ الإمام الغزالى بين [illegible]